خطبة صلاة الجمعة 19/ 3/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(على الله توكلنا)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به.

والأذن الواعيه هي أذن سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجِبِه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة الثانية عشرة في سلسلة عنوانها (**توعية**)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنُعَمِّم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: **على الله توكلنا**

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:58]

في شدائد الحياة واضطرابها، ومع تتابع الأزمات وآلامها، يجد المرء نفسه أحوجَ ما يكون لأن يقول: (على الله توكلنا).

عندما يتنفس الصبح وفيه غُصَّة الترقب، وعندما ينسدل الليل على رجفة التخوف، يجد المرء نفسه أحوجَ ما يكون لأن يقول: (على الله توكلنا).

عندما تقل ذات اليد، وتكثر هموم الغد، وتتتابع المحن بلا إحصاء ولا عدّ، يجد المرء نفسه أحوجَ ما يكون لأن يقول: (على الله توكلنا).

روح الإيمان وسره إفراد الله تعالى بالمحبة والإجلال وما يتبع ذلك من التوكل والرغبة والرهبة.

فلا يتوكل المؤمن إلا عَلَيْهِ فيطمئن، ولا يرغب إلا إليه فلا يذل، ولا يرهب إلا منه فلا يهون، ولا يستعين إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا لَهُ.

من اعتمد على ماله قلّ، ومن اعتمد على علمه ضلّ، ومن اعتمد على جاهه ذلّ، ومن اعتمد على بشرٍ كَلّ، ومن اعتمد على الله فلا قلّ ولا ذلّ ولا ضلّ ولا كلّ ﴿وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

- سباح عالمي حائز على لقب بطل كأس العالم لمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً مات غرقاً في البحر في أحد السباقات!.

يقول المنقذون: بدأنا في عملية البحث وانتشرت فرق الإنقاذ في منطقة السباق فلم يعثر على السباح ونزلت الضفادع البشرية إلى الأعماق وبعد ما يقرب من الساعة تم انتشال الجثمان وسط ذهول الجميع.

فاحذر أن تتكل على خبرتك! فهناك من هو أكثر خبرةً منك هلك مع أنه خبير، وكن ممن يتوكلون على الله وحده، لتسلم في العسر واليسر، والشدة والراحة.

- كريستوفر ريف ممثل أميركي مثل دور السوبرمان، وكان في تمثيله ينقذ العشرات والمئات من البشر من ورطات وعصابات وسجون ونحوها، ويظهر بأنه صدّق بأنه الإنسان السوبر (الكامل)، وفي يوم وأثناء تدربه على الحصان سقط فدقت رقبته فأصيب بشلل كامل، وظلَّ مقعداً على كرسي متحرك إلى جانبه جهاز تهوية محمول؛ لأنه لم يكن بوسعه التنفس من دون مساعدة، ومن عام 1995 زمن الحادث وحتى 2003، أي لمدة ثماني سنوات بقي الأطباء والمعالجون والمشافي تحاول في أن تعيد إليه الحركة فتمكنوا في 2003 من أن يستعيد حركة أصابع يده اليسار ورجله!.

كتبت بعض الصحف: "كريستوفر ريف سوبر مان أنقذ الكثيرين لكنه لم يستطع أن ينقذ نفسه!".

فاحذر أن تتكل على قوتك! فهناك من هو أقوى منك هلك مع أنه قوي، وكن ممن يتوكلون على الله وحده، لتسلم في العسر واليسر، والشدة والراحة.

- ملياردير غربي سيطر على تجارة البن والسكر والأسلحة في بلده، كان يقول "لو كنت أمشي في الطريق ووقع مني مليون دولار فسأتركها ولن أضيع وقتي في التقاطها".

يقولون ذهب مرة إلى مطعم فتعثر أحد الخدم وأسقط عليه كوب ماءً فرفض قبول اعتذاره وطلب من مدير المطعم أن يطرده، وعندما علم لاحقاً بأن الخادم لم يطرد اشترى الفندق والمطعم بما فيه انتقاماً لطرد الخادم لخطأ غير مقصود.

مرت الأيام وخسر أمواله وتجاراته ففقد عقله وصار مشرداً في الشوارع، لا يذكر شيئاً عن نفسه وأصبح يسكن علبة كرتون!.

فاحذر أن تتكل على مالك! فهناك من هو أغنى منك هلك مع أنه غني، وكن ممن يتوكلون على الله وحده، لتسلم في العسر واليسر، والشدة والراحة.

أخرج أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**».

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «**أَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ**» (أحمد).

في الرزق أهل لا إله إلا الله يتوكلون على الله ويفوضون أمرهم إليه، فيعلمون يقيناً أن الرزق من الله تعالى وحده، لا يقطعه أحد إن أرسله، ولا يعطيه أحد إن منعه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

جاء رجل إلى الشبلي يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمن ليس رزقه على الله تعالى فاطرده عنك!.

قال الأصمعي: أقبلت خارجاً من البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي فتلوت ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: 1] فلما بلغت قوله ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22] فقال: حسبك.

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال: فهل غير هذا؟ فقرأت ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] فصاح فقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف! لم يصدقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين!.

الوَكِيل اسم من أسماء الله تعالى وهو القَيِّم الكَفِيل، الَّذي تكفَّل بأرْزَاق العِبَاد وتدبير شؤونهم.

والوَكِيل سبحانه هو الذي توكَّل بالعالمين خَلْقاً وتدبيراً، وهدايةً وتقديراً، فهو المتوَكِّل بخلقه إيجاداً وإمداداً.

كان خاتم الإمام مالك بن أنس –رحمه الله– منقوشاً عليه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173]، فسألوه عن سبب اختياره لهذه الآية، فأجابهم: لأنَّ بعدها قوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:174].

أيها الإخوة:

لا يختلف عالمان على أنَّ التَّوَكُّل عمل القلب، فالعبد آخذٌ بأسباب السَّلامة والسَّعادة بجوارحه، منخلعٌ عن الحول والقوَّة بجنانه، «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**» (الترمذي).

يسعى لرزقه ببدنه، ويفزع إلى الوكيل بقلبه، مطمئناً إليه، وراغباً بما لديه، واثقاً به، قاطعاً الالتفات إلى غيره.

فإذا طلبتم النّصر والفرج فتوكّلوا عليه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

وإذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكّل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إله إلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: 129].

وإذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكّل: ﴿قُل لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

وإذا خشيت بأس الشّيطان فلا تلتجئ إلّا إلى التوكل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99].

وإن شئت أن تنال محبّة الله فانزل أوّلا في مقام التوكّل: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

فإذا تحققت بالتوكل وبتفويض الأمر لله فقد تحققت بـ لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إله إلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13].

والحمد لله رب العالمين